المصطلح النقدي بين فوضى الممارسة القرائية و انتهاكات الاجتهاد الفردي

د . سليم كرام

جامعة محمد خيضر بسكرة

Resume

La critique arabe contemporaine s'est épanouie au niveau de la pensée latérale et verticale après avoir ouvert ses portes sur les cultures occidentales. Elle a atteint, dans sa pratique, une telle précision de traitement de ces niveaux que cela lui a valu de verser dans la divergence et la contradiction voire dans l'incohérence. Ainsi, elle a été confrontée dans cette communication culturelle à diverses difficultés dont la plus importante et la plus complexe au niveau de la pratique critique reste celle du traitement du concept critique. Ce dernier étant le résultat d'un conflit de différenciation de la pratique interprétative et d'efforts individuels réalisés par des compétences modernistes, en dehors d'un cadre visant à unifier la vision critique contemporaine.

الملخَّص:

انفتحت الممارسة النقدية العربية المعاصرة على مستوى من التفكير الأفقي و العمودي ، بعد أن فتحت أبواب لسانها على الثقافات الغربية ، وبلغت في تواصلها من دقة التعامل مع تلك المستويات ما جعلها تقع فريسة الاختلاف والتناقض ، بل وحتى التضارب ، فعرفت في ذلك التواصل الحضاري مشاكل ، لعل أهمها وأعقدها على الممارسة النقدية مشكل تعاطي المصطلح النقدي،الذي يعتبر نتاج تنازع اختلافية الممارسة القرائية، والاجتهادات الفردية التي تمارسها الطاقات الحداثية خارج الإطار الهادف إلى توحد الرؤية القرائية النقدية المعاصرة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

مدخل تأسيسي :

أولى العتبات :

إن الخائضين في مجال الحديث عن قضية المصطلح النقدي ، ليرون أن جهودهم ما هي إلا فضاء لمناقشة فكرة ، هي من المشكلة العسيرة اقرب ، فهم يشحذون أقلامهم و يبارون أفكارا فرضت نفسها بقوة الوجود لا قوة المنطق ، و لذلك كان كل منهم يتخذ موقفا منحازا لفئة من طائفتين ؛ قدست إحداهما الموروث القديم و اعتبرته منطلق كل تفكير و نقطة البدء لكل فكرة ، و ثانية اتخذت من الفكر الغربي المتطور خليلا، واعتبرت انجازه نقطة بعيدة عن ما توقف عنده فكر العرب في عقود زهوهم الثقافي العتيقة ، و الدارس الحصيف لا ينجر إلى هذه الترهات ، فمرجعيات الفكر إنسانية لا تخضع لحزبية أو عصبية ضيقة ، لذلك علينا في هذه الدراسات البحث في أصول و مكامن المشكلة ، لإيجاد نقاط مضيئة نحادي بها فكرنا ، ونوجهه إلى سبل إيجاد مكان في عالم صراع الحضارات القائم .

مقدمة:

عرف الفكر الأوروبي ثورة نشطة في شتى مجالاته أسرعت في نضج مستوى تفكير رواده ، وأعطت التصور الإنساني أبعادا ؛ جعلته يحلق عاليا في فضاء الموجود و التراث من الفكر المتداول ، وعرف ذاك النشاط سرعة فائقة في حقول المعرفة الإنسانية والاجتماعية ، ما احدث ثورة عارمة في الآليات و الأفكار والمصطلحات ، فتزاحمت في مدة زمنية ضيقة لتثمر ركامًا هائلا من الإبداع في الكتب والمؤلفين.

و أمام الانبهار العربي بصورة هذا النمو الحضاري ، انجذب نقادنا إلى تعاطي هذه الأفكار وتشرب آلياتها ؛ باستنساخ مصطلحات علومها التي تهاطلت على ساحتنا ، فلم تأخذ وقتها الكامل أو حتى اليسير لاستيعابها ، و في حضور المرجعية التراثية المقدسة راحت الجهود تنخر الذاكرة بحثًا عن معادلاتها العربية، فاختلفت و تباينت في بداية أمرها ، ثم توسع الاختلاف إلى التضارب و التناقض ، فبات كابوس المصطلح الموازي شغل النقاد بعد أن كان وسيلة تبسيط الأفكار ، فاخذ ركنا هاما في اهتمام هؤلاء ، و تحول إلى علامات تعجب أمام القارئ العربي ، ومرجعياته لا تزال غير مطعمة أمام هذا الإسهال المتهاطل في المصطلح ، فكان من طبيعة الموقف أن يقف أمام السبيلين : إما أن يكون سَلَفِيَّ الهوى ؛ و يرى رأي الأجداد و يعتبر ما توصل إليه

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

هؤلاء الحداثيون إنما هو امتداد طبيعي لذلك المجهود ، فهو نقطة بدئه و هذا الجديد نقطة وصوله الحالية ، أو أن يلتقط هذه المصطلحات بخضوع المغلوب المنبهر ـــ على رأي ابن خلدون ـــ ويراه الأقدر على الإنتاج المكتمل المبدع ؟

وأمام هذا التساهل استقطبت الساحة النقدية العربية ـــ بمجهود أبنائها و مرغمة ـــ سيلا من المصطلحات الغربية، التي كانت نتاج الترجمة الفوضوية لأعمال يراها هؤلاء أجدر بأن تنشر عدوى أفكارها فينا ، فكانت وصايتها على نقدنا قد اتخذت صورة من عنف الاستخدام ، فيما بين تلك الجهود المتعددة مشرقا و مغربا ، و راحت تنفخ تلك الوحدات الدلالية في ساحتنا روحا من الشحناء ، و توسع حيز الجدل بينهم وتدفع في عمقه تساؤلا ؛ أليست هذه الوحدات هي مستنسخات من تلك المسميات التي وضعها بلاغيونا القدامى في زمن عزيز علينا ولت أمجاده ؟ أم أنه شُبه لهم ؟ تساؤل وضعهم في « معبر ضيق بين ذاتية تراثية تحوّل التراث إلى قيمة مطلقة ، لا يقدر بها على التفاعل المباشر مع الحضارة القائمة ، وحداثية تعلن بخطابها المعمم بؤسها و إخفاقها في تحقيق المدنية »[1] ، لنقف على عتبات التساؤل القائل: « كيف نقرأ النص العربي ؟ هل نقرأه بذهنية تراثية عفا عليها الزمن ؟ أو نقرأه بذهنية عبثية كما يفعل الكثير من الكتاب المعاصرين ؟ »[2] ، و هل يمكن أن نرتقي بتلك النصوص والأبحاث أن تثير حفيظة الناقدين الغربيين ونستطيع الرد بالمثل فنشغل بمنتوجنا النقدي حيزًا ولو صغيرا من انتباههم .

وانطلاقا من هذه التصورات العامة للأهداف والمنطلقات ، تم تحديد أهم أسماء المصطلحات النقدية التي اعتراها تفاقم الاختلاف ، والتضارب في الترجمة و تحديد الهوية من خلال اجتهادات اقل ما يمكن وصف ما قدمته للساحة النقدية مزيدا من التمزق و التنافر في الجهود ، وأبطأت بذلك تسارع حركة التطور الفكري ، و حصرته في اللهث خلف سراب دقة ما يقصده المصطلح ، و الدرس النقدي من ذلك في غنى ، و ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع ما كان من وقوفي على عديد حالات التيه والتساؤل ، التي يقف عندها طلبة الدراسات العليا في جامعاتنا، ما يجعلهم في شديد تردد في تعاطي هذه المصطلحات واقتبالها منهم، على مستوى مناقشة رسائلهم ، و هي الطاقات التي نحتسبها مستقبلا ستعمل على وضع النقد في مساره الصحيح ، إذا ما ساعدناها على تحقيق الوحدة الاصطلاحية النقدية حاليا .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

هكذا تدافعت بي الأسباب إلى اختيار هذا الموضوع ، رغم ما كان من غزارة الحبر الذي سال على طروس المختصين في مجاله ، إلا أنني آثرت أن أمد يدي بين هذه الأيدي الكريمة ، عل قولي يدعم تلك الجهود لتتحقق الغاية ، و تتجسد دعوة ضرورة توحيد المصطلح التي يناشدها ذوو الأذواق النقية ، والألباب الغيورة على التقدم بالنقد العربي إلى تحقيق ذاته بأدواته الخاصة .

و قد تمت دراسة الموضوع من خلال الوحدات التالية :

- مقدمة تم فيها تحديد المتطلبات العلمية للموضوع ، و الهيكلة و الأهداف المتوخاة من الدراسة ، في منظور أكاديمي بحت.
- ثم في الموضوع تم حصر المحاور التي يراد استهدافها من هذه الدراسة ؛ بدءاً بتعريف المصطلح لغة واصطلاحا ، ثم التطرق إلى اجتهادات السلف في صناعة المصطلح ، و إبراز أهم الضوابط في تحقيق دقيقة الإشارة ، التي يحملها المصطلح النقدي درءاً للاختلاف ، ثم تناول صورة التناول العربي الحديث و المعاصر للمصطلحات الأجنبية ، وحاولت إبراز كيف كان هذا التلقف ، ووضحت صورة الفوضى في هذا التناول، انطلاقا من مجهودات وتصورات فردية بعيدة عن إطار الاتفاق حول مرتكزات الترجمة و التعريب، و أخذت كنماذج لتضارب الترجمة ثلاثة مصطلحات ؛ أثيرت حولها عديد التساؤلات ، حتى وصف المحدثون أمرها ؛ بأن لكل ناقد ترجمة خاصة به ، وهذه المصطلحات (التفكيكية أو التشريحية ، التناص أو النصانية ، الشعرية) ، و حصرت صورة الاختلاف و التضارب الحاصل ، و ما كان من تماطل الأسماء للمسمى الواحد مما ذكر ، وخلصنا إلى سبب ذلك ؛ و هي الترجمة لنصل إلى ضرورة تنشيط آلية معطلة على الرغم من أهميتها ، ألا وهي التعريب إذا ما أُخلصت النوايا في التخلص من هذا الإشكال .
- لنخلص في نهاية العمل إلى جملة من النتائج و التوصيات ؛ لا ادعي فيها الأسبقية إنما هي ثمار جهود صادقة لوحت من قبل بها ، و ما أراني في هذه الإشارة إليها إلا كما سبق ؛ أريد أن أشارك بالشد على أيدي هؤلاء في تحقيق الغاية النبيلة ، و السير بالنقد العربي إلى طريق الاستقلال عن التبعية للتفكير الأجنبي ، حتى يكون بعدها التحرر و منه الابتكار.

أولا : تعريف المصطلح :

لكل علم مصطحات يقوم عليها و يتواصل رواده من خلالها ، فأساس المعرفة المؤسسة منظومة دقيقة من المصطلحات ، و لا يمكن التواصل مع هذا إلا بمعرفة خبايا و دلالات ، و ما

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

تؤول إليه رزنامة مصطلحاته ، فلا سبيل إلى تطوير العلم و توسيع شبكته ، إلا بما تحمله مصطلحاته من قدرة على تمكين التواصل بين مرتاديه ، بما يملكه من دقة الدلالة ، و ما يحمله من قدرة على التطور و النمو ، وفق مدار طبيعي جاد تتوخاه الأفهام ، من خلال ما يحمله من سعرات دلالية معرفية تعمل على نموه و اتساع آفاقه .

وتقف إشكالية تعريف المصطلح و إبراز دلالته و معناه، حجر عثرة أمام مسار الأبحاث الجادة على الرغم من كثرتها ، ذلك و إن توحدت في الجذر (ص ل ح) و منطلق الدلالة (الاتفاق) ، إلا أن الصعوبة تبدأ فتطل برأسها من لفظ المصطلح استخدامًا ؛ فمِنَ الباحثين من يستخدم (المصطلح) بصورة لفظ جديد ، وآخرين يتكئون على قواميس اللغة ، ويتحججون بأن أسلافنا العرب لم يعرفوا اللفظ بهذا الشكل، بل عرفوه بالقول (الاصطلاح)، ومنهم من وظفه بلفظ (الاصطلاحية)؛ معتبرين الاتفاق في الاصطلاح مقرون بالتوافق الدلالي في الأسماء عموما، أما هنا فالأمر مرتبط بألفاظ ذات بعد فني وعلمي، لهذا يجب تمييزها بهذا اللفظ الخاص، ليكون لفئة أخرى تصور رابع يفضّل استخدام لفظ (المصطلحية) وهي استخلاص لترجمة مفهوم علمي حديث للدلالة على مسميات علمية جديدة، يتصور أصحاب الاقتراح أنها قد تأخذ صورة لاستقلالها اللفظي والدلالي عندنا، بعد أن استطاعت العبور إلينا، ومن باب الخطأ الشائع والصحيح المتروك نجد أن هذه استخداما. المسميات متداولة وصحيحة مقبولة، لذلك فسنستخدم لفظ المصطلح الذي يعد أكثر المسميات الأربعة السالفة.

فقد جاء في توصيف جذرها اللغوي (ص ل ح) ما ذكره أصحاب المعجم الوسيط : «اصطلح القوم: زال ما بينهم من خلاف، وعلى الأمر تعارفوا عليه و اتفقوا ... والاصطلاح : مصدر اصطلح ، و اتفاق طائفة على شيء مخصوص، و لكل علم اصطلاحاته »[(3)]، فأصل اصطلح يكتمل بمعنى الاتفاق و التوحد في الرأي، على عكس ما انطلقنا عليه في أواننا من اختلاف في منطوق اللفظ ، و يضيف الزبيدي : «واصطلحا و اصّالحا (مشددة الصاد) ، قلبوا التاء صادا وادغموها في الصاد ، و تصالحا و اصتلحا (بالتاء بدل الطاء) كل ذلك بمعنى واحد»[(4)]، تدل على الاتفاق والاجتماع ، فالمنشغلون بالهم الفكري هم مَن «تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني ، و هم اشتقوا لها من كلام تلك الأسماء، و هم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب باسم ، فصاروا في ذلك سلفا لكل خلف و قدوة لكل تبع»[(5)].

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

لقد حرص الغربيون على أن يعملوا جهدهم لوضع مصطلحاتهم وفق آليات دقيقة ، مرتبطة بمرجعيةِ تقاسمهم الثقافي واختلفت في مجالات أخرى، وبوصاية دستور لغة تقربهم من بعض على الرغم من اختلاف رسمها، واتبعوا مشروعهم النهضوي بوضع الموسوعات الضخمة للمصطلحات، بهدف توحيد قواعد صناعة المصطلح على نطاق عالمي واسع، حتى لا يخرج عن نطاق التصور العام، وتصاب تلك المصطلحات بتحول في التوجه والمدلول، فجنبوا لغاتهم وأفكارهم سذاجة الاختلاف؛ فكان مثلا معجم شلومان المصور للمصطلحات التقنية، الذي جاء في ستة عشرة مجلدا و بست لغات عالمية ما بين (1906 ــ 1928)، وزاد انشغال الجامعات الكبرى في العالم بأهمية الموضوع ؛ ما أدى إلى تدريس مقياس النظرية العامة لعلم المصطلحات ؛ التي تعنى بتطوير المبادئ المعجمية للمصطلحات العلمية .

أما مجهود العاملين في الحقل النقدي العربي المعاصر ، و انطلاقا من اجتهادات فردية جعلت تعريف المصطلح يتصور بأشكال متنوعة ؛ اختلفت في مفرداتها وتصوراتها و الغاية منها ، إلا أنها توحدت في قيمة المصطلح عموما ، و أنه « ليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية»[6].

وهذه طائفة من التعاريف الاصطلاحية تختص بتحديد المعنى انطلاقا من التوظيف و الدلالة :

فمن يراه « نمطَ تعبير خاص بلغة ما ، يتميّز بالثبات ويتكون من كلمة أو أكثر ، تحولت عن معناها الحرفي إلى معنى يغايره اصطلحت عليه الجماعة اللغوية»[7] .

و من يعرفه بأنه « لفظ موضوعي ، تواضع عليه المختصون بقصد أدائه معنى معينا بدقة ووضوح شديدين ، بحيث لا يقع أي لبس في ذهن القارئ أو السامع لسياق النص العلمي »[8] .

و آخر يراه « تراكما مقوليا يكتنز وحدة نظريات العلم و أطروحاته »[9].

و رابع يعتقده بالنسبة للإبداع « نقطة الضوء الوحيدة التي تضيء النص ، فيما تتشابك خيوط الظلام، و بدونه يغدو الفكر كرجل أعمى في حجرة مظلمة ، يبحث عن قطعة سوداء لا وجود لها»[10] .

فيكون « المصطلح بهذا المعنى علامة دالة ، محددة لحقل معرفي معين »[11] .

فالمصطلح لفظ يعمل على تكثيف المعنى حوله ؛ بزحزحة المعنى الثابت للفظ إلى دلالات إيحائية وتأويلية جديدة ، ما كان يحملها قبل تلك اللحظة ، فتتسع مسؤوليته اتجاه المعنى ، و تزداد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

اهمية حضوره في سياقات الكلام ، ليتكشف عن مواقع ما كانت تحضر في الأذهان بحضوره سلفا ، فالمصطلح يتجسد فيما وراء اللغة (Meta-Language).

وهو كذلك « كلمة أو مجموعة من الكلمات تتجاوز دلالتها اللفظية والمعجمية ، إلى تأطير تصورات فكرية وتسميتها في إطار معين ، وتقوى على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات معينة. والمصطلح بهذا المعنى هو الذي يستطيع الإمساك بالعناصر الموحدة للمفهوم، والتمكن من انتظامها في قالب لفظي يمتلك قوة تجميعية وتكثيفية ، لما قد يبدو مشتتا في التصور»[12] ، وهو بهذا يمثل درجة عالية من التجريد ، إلا أنه تجريد مفهومي على مستوى اللغة الواصفة .

ويرفض الناقد محسن حسن عبد العزيز حين نقصر مفهوم المصطلح في عامل التواضع والاتفاق المفترض هكذا، ويهندس له ضوابط و أسس تحكم ظروف ذاك التواضع فتيسر نشوئه وولادته ، ويصنف بذلك فكرة التوافق العام لأهل العلم في أمر مدلوله في آخر الاهتمامات، فيقول: « بل إنه اتفاق قائم على معايير، إن أي محاولة للتصنيف في أقسام ينبغي أن تكون قائمة على وجوه شبه أو خلاف، في كل ما يدخل في القسم المفترض وتميز عمّا عداه، لهذا لجأ أهل الاصطلاح إلى التعريف لكي يجدوا به المعرف بحيث يكون جامعا مانعا »[13]، فحركية تطور المصطلح و تبدل ملامحه العامة تعمل على الإسراع إلى ضبطها، واختيار الوسائل و الآليات والطاقات المناسبة لذلك ، فصناعة المصطلح باتت من« أحدث أفرع علم اللغة التطبيقي ، يتناول الأسس العلمية لوضع المصطلحات و توحيدها »[14] .

ثانيا . المصطلح النقدي العربي بين التأصيل و التحوير

1. صناعة المصطلح عند القدامى :

لقد كان العرب قبل انفتاحهم العلمي قوما يتفاضلون ببلاغة اللسان ، ويتسامون بفصاحة الكلام ، و لا تحكم تلك الفصاحة والبلاغة ضوابط معرفية محددة، إنما كان شيوع التخاطب دربهم، وسليقة الكلام وسيلتهم، غير أنهم حينما عمدوا إلى الانفتاح العلمي على ميراث الآخرين من الأمم الغابرة و الحاضرة، تحصنوا بما يملكونه من ثقة في لغتهم قوام شخصيتهم وعمدوا إلى إخضاع العلوم الوافدة إلى منطقهم وحضيرة لسانهم، فاستحدثوا بما كانوا يملكون من ملكة الخلق مصطلحات لم تعهدها الأسماع ، بضوابطها التي تعارفوا عليها، فكان القرن الثاني للهجرة قرن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

ممارسة في سبك المصطلح ، فجَرَت على ألسنتهم آليات وقوالب خضعت من بدايتها لمنطق الشمولية، فصكت الألباب عديد المصطلحات التي لم تؤخذ من تلك الحضارات الغربية لفظها، إنما انطلقت بعفويتها الواثقة في خصوبة لغتها، في وضع مصطلحات كانت قواعد و لا تزال مورد نقادنا المعاصرين، لا ينفكون يرددونها و لا يبغون عن شكلها و مضمونها حولا، وكأنها لبنات الأساس في صرحهم الفكري المجيد، وكان لانتشار الاقتناع بمدلولها قوة وجود لمرجعيتها، فالاتفاق أساس انتشار المصطلح، ومتى ما تحقق بات من يأتي من بعده من العلماء ، ملزما أن يلتمس طريق علمه على هدي ما تحمله تلك المصطلحات، و مَنْ أحدث فيها أمرا زجره شيوخهم بالنقد والتقريع؛ من مثل ما كان من قدامة بن جعفر في مؤاخذته على ابن المعتز، حين أراد مخالفة سابقيه في بعض المصطلحات، قائلا : « فإني لم أكن أحب له أن يخالف من تقدمه ، مثل أبي عباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الأنواع ، ولف فيها و قد سبقوا إلى التنقيب و كَفَوْه المؤونة »(15).

وتبلغ ذروة الاهتمام بالمصطلح في العصر العباسي ، بعد أن ناقشوا المقولات الكبرى وعدّلوا الآراء التي كانت شبه مسلمات ، و طوروا مستويات تفكيرهم بمقارعة تلك الاجتهادات ؛ بخلق العديد من المصطلحات العربية الجديدة المستقلة في لفظها ومدلولها ؛ كالجراحة و الكحالة والتشريح ، وأطلقوا الأسماء على بعض أمراضهم كالسرطان و الخانوق والذبحة والربو وذات الجنب والبواسير ولفظ الترياق أنتجوا لفظ المخضرم ومسميات علم البلاغة و النحو و الفلسفة وغيرها ، و قد عمدوا إلى وضع الموسوعات لهذه المصطلحات، و ما يقابلها من اللفظ و التسمية الغربية ، ما مكن أفكارهم من مزاحمة التصور والاسم الأجنبي، و هذا ما أكسب اللغة و علومها الطاقة و القدرة على مجالسة ، و مناظرة غيرها من لغات العلوم في ذلك العصر، بل و ما جعلها تتفوق عليها جميعا ، و هذا ما نحن بحاجة إليه في عصرنا الراهن، فإنا لا نستطيع مواكبة مسار التطور العلمي إلا بواسطة لغتنا التي نعبر بها عن أفكارنا، ولن يتحقق ذلك إلا بما حقق به سلفنا نهضتهم .

هكذا انطلق العلم عند أهلنا القدامى على أساس من نقاء الأفهام من الاختلاف والتطاحن، فكان مجمل نجاح خطواتهم ومجهوداتهم في العلم؛ إشاعتهم لمبدأ الاتفاق المطلق خاصة في أمر المصطلح ، ولذلك فكل من تصدى لتعريفه ركن إلى مبدأ التوافق ؛ فهذا محمد الشريف الجرجاني

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

يقدم له تعريفا بالقول أنه : « عبارة عن اتفاق قوم على تسمية شيء باسم ما ، ينقل عن موضعه الأول»[16].

2. صناعة المصطلح عند المحدثين و المعاصرين:

إن ترجمة المصطلحات النقدية قد أحدثت إعصارا من التوتر و الفوضى ، لسعي كل مستخدم لترجمة المصطلح أن يحافظ على المحمول الحضاري الذي يشمل اللفظ الأنموذج ، و يراعي النسق المعرفي والفكري المتربص خلف روح غامضة ، سابحة في عوالم تلك المصطلحات ، تجوب أعماق مؤلفيها بأطياف لا يستطيع هو نفسه تفسيرها ، وتقديمها في صورة كاملة فهذا دريدا يقر أن « هناك في لغتي من قبل مشكلة، ترجمة شائكة بين ما تهدف إليه هنا و هناك عبر هذه الكلمة ، و استخدام هذه الكلمة نفسها و منبعها ، لقد بات من المؤكد أن الأشياء تتغير من سياق الى آخر في الفرنسية نفسها »[17]، لتبقى تلك المسميات عرضة لزعزعة دلالية قد تحوّل الغاية فيها إلى معالم متنوعة و متباعدة ، و لا تستقر في صورتها الجزء/نهائية إلا بعد أشواط عدة من الأخذ و الرد .

و في زمن ذاك المخاض تهافت النقاد العرب على اقتناء تلك الأفكار التي تحضَّر في صمت ، ثم يسعون في ترجمتهم لها إلى تحري الدلالة المقصدية لأصحابها ، و التي في غالب الأمر ما تزال لم تكتمل، منطلقين من تصورات لمرتكزات فكرية خاصة عرف بها صاحب النظرية ، إضافة إلى ما يستند عليه المترجم من معرفة بخبايا اللغة الأصلية للمؤلف ، فيحدث بفعل ذلك التحري و ذلك الحرص في استنطاق اللغة ، ما يحدث الاختلاف في ترجمة تلك المصطلحات ، و ما يسعنا نحن القارئين إلا أن نقول تمثلا بحال أصحاب البقرة : « إن المصطلح تشابه علينا ، و إنّا ـــ على وقع هذا المسار المضطرب ـــ إنشاء الله ما مهتدون، إلى سواء سبيل توحيد مصطلحاتنا » على الرغم مما تحققه لهم .

و سنعرض بعض ما حدث من تناقض و اضطراب في صياغة و تبني مصطلحات عامة، تُعد من أصول النقد المعاصر والمناهج النقدية الشائعة، و كمثال سنأخذ ثلاثة مصطلحات لنرى ما شابها من فوضى الترجمة و تناطح الآراء .

3. المفارقة في توظيف المصطلح النقدي . نماذج اصطلاحية

أ. التفكيكية : فحينما أراد نقادنا المعاصرون نقل مفهوم مصطلح (Déconstruction) ، الذي وضعه جاك دريدا (J. Derrida) إلى لغتهم ، حذرهم هو

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

نفسه من أن « صعوبة تحديد مفردة التفكيك وبالتالي ترجمتها ، ينبع من كون جميع الدلالات المعجمية ، و حتى التمفصلات النحوية التي تبدو في لحظة معينة ... خاضعة هي الاخرى للتفكيك و قابلة له مباشرة، وهذا يصح على كلمة تفكيك مثلما يصح على كل كلمة»[18]، ونتيجة تسرعهم لم يقف اجتهادهم على مقابل واحد يُترجمون به مفهوم اللفظة ، بل اختلفت وتضاربت مُقترَحاتهم بصورة واضحة جلية ، بلغت حد التناقض و التلاسن ؛ فهذا الناقد عبد الله الغذامي، صاحبُ أول دراسة في نقدنا المعاصر حاولت قطع البحر المتوسط بالمصطلحات النقدية ، يقترح ترجمة هذا المصطلح الغربي بـــ (التشريحية) ؛ و يقول: « احترت في تعريب هذا المصطلح ، و لم أر أحدا من العرب تعرض له من قبل (على حد اطلاعي) ، وفكّرت له بكلماتٍ مثل (النقض/ والفكّ)، ولكنْ وجدْتهما يحْملان دلالات سلبية تُسيء إلى الفكرة . ثم فكّرت باستخدام كلمة (التحليلية) من مصدر (حَلّ) أيْ نقض ، ولكنني خَشِيتُ أن تلتبس مع (حلّل) ؛ أيْ درَس بتفصيل، واستقر رأيي أخيرًا على كلمة (التشريحية أو تشريح النص» [19] ، وقد وفق في اقناع غيره بتوظيف هذا المصطلح في مقارباتهم للنصوص الشعرية المعاصرة ، في بعض أعمالهم النقدية .

و ما لبث ممارسو النقد عندنا أن انجذبوا لترجمة لغوية دلالية أخرى للمصطلح ، آثروها على لفظة التشريحية ، فكانت (التفكيكية) التي يراها أسامة الحاج[20] و صلاح فضل[21] و عزت محمد جاد «المقابل المستقرّ الشائع ، الذي لم يختلف عليه إلا (التشريحية)!»[22]، واعتبارا لوقع اللفظة الصياغي على الأذن من خلال تناسق حروفها أخذ بلب فقبول الوسط النقدي فاشتهرت أكثر من المصطلح المقترح أولا .

ثم اقتُرِحَ للمفهوم ذاته مسميات أخرى كانت متنوعة ، خلافاً لما زعمه جاد و من سلك سبيل زعمه؛ فاستعمل بعضُهم المصطلح نكرة غير معرفة تعريف بداية (الـــ) أو إضافة ، فقالوا (تفكيك) ، على غرار ما كان في مجهود جابر عصفور في ترجمته كتابَ رامان سلدن (النظرية الأدبية المعاصرة) [23]، كما أقرَنه آخرون بموصوف دال عليه و مرتبط به ، يكون في أذهاننا تحصيل حاصل ، ونريد به لفظ المنهج فقالوا (المنهج التفكيكي)؛ وهو الاسم الذي جرى على ألسنة النقاد في هذا الزمان .

والواقعُ أن ترجمة هذه اللفظة أثار العديد من الحفائظ ، و أشاع جدلا عارمًا بين الممارسين لوسائل النقل المتعددة ، فكان أن أعملوا النحت و المزج و التعريب ، فكانت مجموع اجتهاداتهم ما

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

تجاوز العشرة مسميات ، اشتبه بها الأمر على العاملين في المشهد النقدي ، ممن كثر استخدامه من اجتهادات المشهود لهم في مجال تعاطي الكتابة النقدية المعاصر .

فمن منطلق مضان خطورة توظيفها على الأعمال الإبداعية ؛ يقترح شكري عزيز ماضي ترجمة المصطلح إلى (اللاّبِناء) **(24)** ، و يرسمها كاظم جهاد بمسمى الاختلاف و يكتبها الإخـــ(ت)ـــلاف ، و يزيد بعد أن أضاف مدلولا آخر بتقديم مصطلح جديد، ومقابل منحوتٍ من كلمتي الاختلاف والإرجاء يتمثل في (الإخترجلاف)**(25)**، وقد استوحي رسمها من خلال التغيير الحرفي الذي أحدثه دريدا في كلمة (LADIFFERANCE) ، حين أبدل حرف (A) في الاسم بحرف (E) ، فنحت الكلمة من لفظي الفرنسية (DIFFER) ومعناها أرجأ و(DIFFERENCE) بمعنى اختلاف ، ويحمل اللفظ المنحوت معنى الاختلاف (في المكان) والإرجاء (في الزمان) ، وترجم حسام نايل التفكيكية بالاختلاف المرجيء ، وينهج السعيد بوطاجين نهجه حينما يقترح اسما منْحُوتا هو (الهَدْبناء) **(26)**، أوله هدم وأخره بناء، و يقترح عابد خزندار لفظة (النقض) ، أما عبد الوهّاب المسيري فيظن التوفيق في مساه المترجم (الانزلاقيّة)**(27)**، وغيرُها من المصطلحات الأخرى الشخصية و غير الشائعة.

أما الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض فبعد أن واكب موجة هؤلاء باستخدام مصطلح التفكيكية في مؤلفاته التالية

ـــ ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية «حمّال بغداد») - ط.1، 1989

ـــ (أين ليْلاي؟) لمحمد العيد آل خليفة ـــ دراسة سيميائية تفكيكية - 1992)

ـــ تحليل الخطاب السردي ـــ معالجة تفكيكية سيمائية مركّبة لرواية (زقاق المِدَقّ) - 1995

ليعزف ـــ بدءًا من عام 1995 ـــ عن مصطلح التفكيكية ، ويعلن براءته من استخدام هذا المدلول الخاطئ للمفهوم ، الذي أراده دريدا من لفظة (Déconstruction) المعضلة ، مقترحا تفسيرا آخر لأصل المعنى في فلسفته بأنه « تقويض يعقبه بناء على أنقاضه ، على حين أن معنى التفكيك في اللغة العربية يقتضي عزل قطع جهاز أو بناءٍ عن بعضها البعض دون إيذائها ، أو إصابتها بالعطب ، كتفكيك قطع محرك أو أجزاء بندقية وهلم جرا... ، والخيمة في العربية تطنب إذا بُنيت، و(تقوّض) إذا أسقطت أعمدتها وطويت»**(28)**.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

ثم استخدم مرتاض مصطلح التشريحية في كتابه النقدي بنية الخطاب الشعري ـــ دراسة تشريحية لقصيدة (أشجان يمانية)، للشاعر اليمني المعاصر عبد العزيز المقالح ، غير أنه يقول في رده عن سؤال حول توظيفه ذلك المنهج: « اعتبره منهجا خاصا بي؛ لا هو ينتمي إلى البنيوية انتماءً خالصا، و لا هو ينتمي إلى الألسنية انتماءً بحتا، وإنما قد يكون أخذ من البنيوية شيئا ... واستخدمت المنهج الأسلوبي أكثر مما استخدمت المنهج البنيوي في تشريح هذه القصيدة »[29]، ومن ظاهر الأمر ندرك أن توظيف كلمة تشريحية أو تشريح لم تقصد بمفهوم المنهج الدقيق ، إنما كان توظيفها في سياق وظيفي ، وهذا من واقع تحديد مظهر المنهج المستخدم وهو غير مبادئ التفكيك؛ فهو منهج مخالف لما قصده الغذامي، فقد كان يريد بتشريح النص ما يفعل الأطباء بتشريح الجثث ، و العناية الدقيقة في تحليل الأجزاء الحية، و أنه من عجز القراء في فهم ما يرمي إليه من توظيف المصطلح ، مشيرا إلى أن « هذه المصطلحات في الغرب نفسه تجد النقاد غير متفقين عليها ، فكيف إذن يجيز أحدنا لنفسه أن يترجم باجتهاده هذا المصطلح أو ذاك، ثم يتعصب له ويروج له، ويعممه في الكتابات العربية المعاصرة ؟»[30].

و ما لبث مرتاض أن اهتدى في بحث المعمق في غايات المناهج و آلياتها ، إلى اقتناص لفظ يراه أقرب إلى ترجمة مصطلح دريدا الهلامي ؛ فاعتبر أن انسب مصلح يحمل شحنة الدلالة الأقرب والمثل الاسمي يتمثل في لفظة (التقويض) أو (التقويضية) ، مستندا إلى أن دلالتها في اللغة العربية تقارب مدلول التفكيك ثم التركيب ، فهي بهذا في معتقد الباحث « أقرب من (التفكيك) إلى مفهوم دريدا»[31]، و إن انتشر على حسابه في الساحة النقدية العربية .

كل هذا الجدل قائم حول ترجمة المصطلح ، و على الرغم من ذلك فالحديث عن تفكيكية عربية نمطية غير وارد ، فما أنفقناه في جدل ترجمة المصطلح ضيَّق أمامنا المجال ، لوضع أساسات خاصة لهذا المنهج النقدي الإجرائي أمام صورتها عند الغرب ، بما تمثله من مشروع حضاري فكري متكامل ، لتطبيق آلياته على تراث صرنا نراه أقدر على تحمل ذلك المنهج اللغوي الميتافيزيقي ، فمشروعه عندنا مازال في طور تأسيس المسميات الظاهرية أما تمام المشروع فما زال لما يستو بعد في الوقت القريب على الأقل .

ب . التناص : و إذا تعاملنا مع مصطلح آخر من مصطلحات النقد و آليات الحداثة ، و هو التناص الذي أثارته الناقدة جوليا كريستيفا ، و على الرغم مما قامت به من تحديد مفهوم لفظها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

النقدي و محموله الدلالي ، و دوره العام في سياق النص ، إلا أنه لم ينجُ ـــ على غرار بقية المصطلحات النقدية الوافدة ـــ من مشكل التعدد الاصطلاحي، ولاسيما أننا نحاول في نقدنا المعاصر أن نبحث دائما عن العلائق التاريخية للمصطلح في مبتكرات أسلافنا، فننساق إلى تلك المصطلحات الموضوعة ، و نحصر أنفسنا داخل ذلك الإطار، و نصبح نفكر من خلاله ساعين لإحياء « الرميم الاصطلاحي المتناثر في تراثنا النقدي لمجابهة المعرفة النقدية التي تحملها المصطلحات الأجنبية الوافدة، هي محاولة عسيرة بل معجزة أحيانًا ، قد ينقلب فعلها على الفاعل»[32]، ونُنْسى أنفسنا بأننا في عصر مختلف ، يجعل من ترجمة المصطلح « تتجاوز المقامات لتوالي المدلولات ، كما يتجاوز نفسه في الترجمات لتوارد التأويلات ، حتى أنه لا وجود في نهاية المطاف إلا لسلسلة واحدة من المعاني ، لا تنقطع حلقاتها و لا ينتهي طولها، إذ لا يُفرق فيها بين ما للأصول و ما للمنقول»[33] .

و هكذا عرفت رحلة عبور مصطلح (Intertexte) ، (Intertextualités) تعددًا في الترجمة ، فهذا الاسم المجمع المدمج الطبيعي في الاصطلاح الأجنبي (المُكون من (Inter) الدالة على البينية ، وفظة (texte) الدالة على النص) ، عرف عددا من الترجمات تجاوز عددها العشرين مصطلحا منها : (التناص، التناصية ، التناصصية، النصوصية ، التضمين النصي ، التداخل النصي ، المداخلة النصوصية، تداخل النصوص ، النصوص المتداخلة ، البنيصية ، بين نص ، تفاعل النصوص ، والنص الظل ، والنص المزاح، والنص المفقود ...).

وقد أضيف إلى ذلك تشكيلات اصطلاحية أخرى لذات المصطلح ، من قبيل مقترحي محمد بنيس (هجرة النص) و (النص الغائب) ، و مقترح محمد مفتاح فيما يسميه بـــ (التعالق النصي) ، حيث عرفه فقال : «التناص هو تعالق – الدخول في علاقة- نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة»[34] ، فضلا عن اجتهادات يوسف وغليسي الذي قدم مقترحين هما : (النصوص المتقاطعة)، وقد اشتقه من (تقاطعات النص) ومصطلح (التناسخ النصي)، واقترابات الطاهر الهمّامي الذي اقترح مسمى (النصوص اللواقح)، تصويرا لاستدعاءات فنية متنوعة قام بها شعراء المغرب استفادة من تجربة الشعر المشرقية الفنية، و قد استخدم بعضهم مصطلح المتناصات (Intertextes)، للتعبير عن مدى الترابط الحضاري في تلاقح الأفكار، و هو قريب مما ذهب إليه الغذامي في قوله : (النص ابن النص).

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

بالإضافة إلى مصطلحات إجرائية حول مستويات التناص، و طبيعة التعالق فيه بين النصوص الغائبة وهويتها؛ فنجد (التفاعل النصي، المناص، البنيات النصية، المتناصّ، المصاحبات الأدبية، المتعاليات النصية) ، فالتناص صوت لنصوص سابقة، فمهما كان النص لا يستطيع أن يكون ذاتاً مستقلة، إنما هو سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى .

ج . الشعرية : أما مصطلح الشعرية فقد عرف تضاربا أوسع في الترجمة بين النقاد العرب ، على الرغم مما يعرف من قدم لفظه في تاريخ النقد العربي؛ إذ قارب تعريف حازم القرطاجني لمدلول مفهوم المصطلح حديثا ومعاصرًا ، إلا أن طبيعة التعامل في تعريب مصطلح (la poétique) أخذ توجها أشد اختلافا، لأنه حاول التعامل مع اللفظة بصورة مدلولها الزئبقي، و ما مثلته آلياتها الجزئية أيضا، فكان حال الاختلاف والتضارب في ترجمتها على صورة ما يأتي:

فأولى المصطلحات التي استوت في الساحة النقدية مصطلح (الشعرية) الذي اقتنع به ووظفه كل من (أدونيس[35] ومحمد الولي ومحمد العمري[36] و شكري المبخوت و رجاء بن سلامة[37]، و سامي سويدان[38] وصلاح فضل ورشيد بن مالك)، أما من قال باسم (الشاعرية) فكان كل من (عبد الله الغذامي سعيد علوش)، وتحولت إلى مصطلح (الشعريات) لدى كل من (محي الدين صبحي وعبد الملك مرتاض ويوسف وغليسي)، وانفرد (عبد الملك مرتاض) بمصطلح (الشعرانية) وعربت كذلك بلفظ (فن الشعر) عند (صموئيل يوسف عزيز[39] وعُلية عزت عواد[40]، ومجدي وهبة وعبد الرحمن الحاج صالح)، ومال اقتناع (محمد عناني) لاسم (علم الشعر)، واستخدم (علي الشرع) [41] مصطلح (نظرية الشعر)، أما مصطلح (الإنشائية) الذي عدوه معادلا أقرب للشعرية؛ فاقتنع به كل من (توفيق حسين بكار[42] وعبد السلام المسدي[43] و فهد عكام[44]، والطيب البكوش وحمادي صمود)، ولاعتبارات اقتناعية بتصور روح الأدب استحدث (جابر عصفور[45] ومجيد الماشطة[46]) مصطلح (علم الأدب)، والشعرية أيضا هي مرادف لـــ (علم الظاهرة الأدبية) لدى (هاشم صالح)، وتتحول إلى (علم النظم) عند (بسام بركة ومبارك مبارك) ، وهي (البوايتيك) عند (عبد السلام المسدي)، و(البويتيك) عند (حسين الواد[47] وعبد الملك مرتاض) و(البويطيقا) لدى كل من (خلدون الشمعة[48] جابر عصفور وسعيد يقطين وعبد السلام المسدي) وأيضا (فن النظم) لدى (فالح صدام الإمارة[49] وعبد الجبار محمد علي) و(الفن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

الإبداعي) لدى (جميل نصيف[50] و محمد خير الدين البقاعي[51]) ... وزخم واسع من المفردات و المسميات .

و بحكم أن الشعرية تمثل قوانين الخطاب الأدبي[52]، فهناك من النقاد من أسس مفهومها على آلياتها المكونة للإبداع ؛ مثل الانزياح بمستوياته المتعددة كموضوع الفجوة (مسافة التوتر) كما يرى كمال أبو ديب.

والغريب أن هذه التسميات قد تتناقض حتى في تحديد الإطار الذي ينظمها، بين النظرية أو العلم أو المنهج؛ فالغذامي يراها نظرية البيان ومحمد القاضي يعتقدها منهجا إنشائيا، في حين يصنفها جابر عصفور ضمن حدود العلم، هكذا تختلف صناعة المصطلحات في عمق أصولها، وتنحى بمدلول التركيب الهادف المتذوق، أما في سياقها الغربي قد تطوح إلى تحكيمية العقل، وشتان بين ما يقصدونه والتقطته أفهام بعض نقادنا المتسرعين .

وهذه حال كل مصطلحاتنا النقدية التي نالت حظها من الاختلاف في الترجمة والتعريب، فأصاب جهود مرتادي الترجمة حديثا فوضى « تتسم بالاضطراب الذي يحُول دون بث وتلقي الرسالة العلمية، ويؤدي في جميع الحالات إلى نسف الأسس التي ينبغي أن ينبني عليها التواصل العلمي»[53]، ما جعل من تلك المجهودات تكون سببا في مزيد من التشتت العربي، بين أقطاب مؤسساته العلمية والفكرية، و لا يمكن التنبؤ في الآفاق المستقبلية القريبة بقرب انقشاع غمامة هذا التشتت، وهذا لافتقار هذه المجهودات إلى منظومة جامعة حاكمة، تخضع لمعايير موحدة تؤطر هذا العمل، فمازال الجهد فرديا والاجتهاد يحسب لصاحبه لا للمؤسسات العلمية للبلاد عموما.

ومن المفارقة الغريبة اتفاق اللغات الأوروبية في أغلبها، على توظيف جذر واحد للمصطلح العلمي الواحد، على الرغم من اختلاف مناطقها وألسنتها وتاريخها و جذورها، على عكس ما نجد أمر ترجمة المصطلح في لغتنا الموحدة في كل تلك العناصر التي اختلف فيها الآخرون .

فكلنا يعرف الداء فما هي العناصر المكونة للدواء؟ التي بها نتخلص من هذه المعضلة التي بدأ يستفحل ضررها، ويتعاظم خطرها على واقع ساحتنا النقدية فما لنا إلا منهج أسلافنا، فلن ننجح إلا بما نجحوا به، ولن نستطيع تحقيق آمالنا إلا بما سلكوه من سبل للمعرفة و التحصيل ، و لعل أهمها خلق مصطلحات دقيقة موحدة تفعلها الهيئات العلمية اللغوية الموحدة ، بإحلال التعريب محل الترجمة .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

ثالثا . واقع الاجتهادات النقدية بين الترجمة و التعريب :

لقد طبق نقادنا العاصرون للاستفادة من التطور العلمي و مواكبة مظاهر تطوراته، عدة طرائق للتعامل مع المصطلحات الغربية، ولربما من أوسع تلك الآليات الترجمة؛ التي كانت ـــ وفق حكم عام ـــ فردية وفوضوية، خلخلت وحدة التفكير وأوقعت بلبلة الاختلاف بين شريحة واسعة بينهم، بلغت حد التضارب والتناطح، لاعتباراتٍ فصّل فيها عديد المهتمين بالموضوع ؛ من أهمها عدم اكتمال بلورة المصطلح نفسه في بيئته و لدى أصحابه، وانشغال المترجمين بالمعنى اللغوي على حساب الدلالة الدقيقة ، ومنح فرصة أمد أكبر لحضور لغة الأجنبي، «على الرغم من نجاح خطواتهم النقدية، فإنها لم ترسم ـــ حتى الآن ـــ حركة نقدية عربية حرّة، ذات أبعاد منهجية قائمة على أدبنا في طبيعته ومضمونه ووظيفته ...، فهي لم تستطع أن تنتج المصطلح النقدي الخاص بنا، و لم تحقق القفزة الفكرية والفنية التي تحقّقت لرواد عصر النهضة، و لم تستطع أن تتمثل حركة النقد العربية القديمة؛ على أهمية ما جاء به بعض النقاد »[(54)].

لهذا « حري بنا أن نبحث عن شيء يشبه وحدة النفس العربية، فالمصطلحات لا تتداعى عبثا، المصطلحات تتداعى حول نظام فكري أو روحي، ما هذا النظام؟ أما آن لنا أن نرجع من المصطلحات إلى دائرة اهتمام، أن نرجع من كثرة التفكيك إلى التركيب أن نرجع من الولع بمعنى الزينة الذي يسيطر على فهمنا للمصطلحات النقدية، إلى معنى التعبير الأصلي و الهم الأساسي»[(55)].

لذلك لن ننجح ـــ كما قلنا ـــ إلا بما نجح به أسلافنا إنه التعريب؛ مصطلح قديم لابد أن يكتسب دلالة إضافية على ما كان عليه سلفًا؛ إذ كان يكتفي بصبغ الكلمة بروح عربية أثناء نقلها من أصلها الأجنبي، خاصة وأنها كانت إذاك غريبة عن الفكر والتصور العربي، الذي بدأ لتوه في الانفتاح، أما التعريب الحاضر فينطلق من خلفية معرفية تراثية إضافة إلى اطلاع ـــ و لو جزئيا ـــ على التصور الغربي، لذلك كان لزاما على المعرب خلق مصطلحات جديدة تتنصل من الوصاية الغربية، وتتحرر من السلطة المطلقة للموروث القديم ، لابد من إعطاء تلك المصطلحات حرية أكبر، في تجسيد تصور متشبع بمدلول مطاطي فضفاض، حتى لا يكون دلالته جاهزة منتهية لا يمكن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

توسيعها بمدلولات جديدة، و إن كان رسمها اللفظي على غير المعتاد عليه في لغة الضاد الواسعة، فلا عهد لها بالانغلاق، بل ما عرف تاريخيا اغتناؤها في كل عصر، واحتواؤها لِكَمٍّ هائل من المفردات الجديدة؛ فكان العربي والمستعرب والدخيل والأصيل وغير ذلك من مظاهر المفردات، «فالتعريب هو الطريق إلى الحفاظ على ذواتنا الثقافية، وتأصيل حضارتنا في عصر العولمة، و هو الطريق في الوقت نفسه إلى استنبات العربية عربيا، وإلى الإبداع والابتكار، فهو مسؤولية مجتمعية وقضية انتماء، وهو من أهم الوسائل التي نلجأ إليها كثيرا لتكثير اللغة وتطويعها للمصطلحات العلمية الجديدة، و أنه يسهم إلى حد بعيد في إغناء اللغة من خارجها»(56)، كما أنه «يعني سيادة العربية على ساحة الوطن العربي، ويعني كذلك التخلص من التخلف والتحرر من التبعات الثقافية و الاقتصادية والسياسية ، إن التعريب هو السبيل إلى أن نكون نحن بسماتنا وخصائصنا وتراثنا وآمالنا ومستقبلنا لا ظلا للآخرين، إنه شأن لغوي و في الآن نفسه شأن حضاري إنساني »(57) .

ويمكن بتنشيط هذا التوجه في التعريب ـــ و هو ليس جديدا ، بل لقد مارسه الأوائل من أهلنا في نقل العلوم والفنون ـــ ، نكون قد أخذنا أولى الخطوات في مسار التخلص من وصاية المصطلح الأجنبي ، الذي زادت ورسخت وجوده بيننا عملية الترجمة الفوضوية، التي راح يدمنها المعاصرون في كل مكان و أوان، وحتى بترجمة ما لا فائدة من معرفته من كتب الغربيين ممن انبهروا بهم، أو لأسباب شخصية أخرى لا علاقة لها بالحث العلمي و المعرفة .

خاتمة:

بعد هذا التوضيح العام لواقع الساحة النقدية المعاصرة و ما تعرقل مسارها من عقبات كان موضوع المصطلح ـــ كما رأينا ـــ من أعظمها خطرا يمكن بلورة مظاهر مشروع بناء المنهج النقدي العربي وفق هذه التوصيات التي لا يخفى على مهتم بالشأن أمرها و تتمثل في :

ـــ مشكلة المصطلح عويصة و التغافل عن خطرها واستسهال أمرها والاستسلام للتعايش معها سبب استفحال أمر خطرها ، فلا بد من التجند له ومقاومته ؛ فقد سُئل كونفيشيوس (حكيم الصين الأعظم) عما يصنع بادئ ذي بدء إذا ما كلفته الظروف بأن يقوم بأمر البلاد، فأجاب دون تردد: " إصلاح اللغة بكل تأكيد "، ثم سئل: لماذا اللغة أولا و بكل تأكيد؟ فأجاب قائلا ـــ والحكمة فيما قال تنبض للعيان ـــ : " إذا لم تكن اللغة سليمة فما يقال بها ليس هو المقصود، وإذا كان ما يقال ليس هو المقصود، فما يستحق الإنجاز لن ينجز ، وإذا لم يُنجز ما يستحق إنجازه ،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

فإن الأخلاق و الفنون يحل بهما الانحطاط ... لهذا يجب التخلي عن الاعتباط في القول، وهذا الأمر يتفوق في أهميته على كل أمر" .

فكل اختلاف في هذا الموضوع لا يمكن اعتباره رحمة على قياس أهل الفقه، إنما هو بلاء ولا نُصيب منه التقدم والتحضر الذي يعتقده هلاميو التفكير والتصور النقدي المعاصر، بل على نقيضه تماما فمزيد الاختلاف يضرم الشقاق و التفرق .

ـــ ضرورة تفعيل آلية التعريب؛ عن طريق استحداث مصطلحات جديدة وتقنينها، لتحمل المعاني والدلالات المستحدثة التي يقدمها المصطلح الغربي، و يجري بعد ذلك توافق الاستخدام انطلاق من قوة سلطة مجامع اللغة في البلاد العربية والمجلات ودور النشر، حتى نحد من سعة الاختلاف و انتشاره .

ـــ عدم تحميل المصطلحات البلاغية العربية القديمة مستويات التفكير المعاصر ، والحد من مسارعة نقادنا المعاصرين إلى البحث والتنقيب عن مرادفات ما يفد علينا من مصطلحات الغربية، ثم يكون التقدير انطلاقا من الجمع بين مصطلحين أو أكثر، ليعتبروا مدلول المصطلح لا يراوح ما تحمله تلك المفردات البلاغية، و هم يدركون قصور تلك عن تعويض هذه في أغلب الأحوال .

ـــ ضرورة مراقبة فعل الترجمة و إحاطة كل ما يفد علينا من الغرب من منافذ متعددة ، بالعناية والمراقبة الكبرى، فالأكيد أن من أسباب نجاحها في عهد المأمون عدم إغفال أمرها وإهمال أخطارها، بعد أن كانت مجال تسارع فردي لتحقيق غايات وامتيازات مادية، بادر إلى توثيق المجهود انطلاقًا من جعل الترجمة عملا من شؤون الدولة، أي وظيفة تابعة لدواوين الدولة، ما جعلها المنفذ الأوحد لتلقي المعارف والعلوم، ولذلك فنحن مطالبون بالاهتمام بأمرها؛ بانتقاء ما يترجم من خلال كفاءات مؤهلة لتحقيق أمر الترجمة، فقد وقع الباحثون على عدد من المؤلفات المترجمة لا تحمل من المعرفة النافعة إلا زادا ضحلا، ذهب جهد صاحبه هباءً، بل قد يُذكى فيها خلافا حول مدلول اصطلاحي بدأ تعاطيه، وكذلك إشراف الدولة الأوحد على توفير الكتب القيمة والحد من الاستيراد الفردي.

ـــ لا يجب أن نقف عند أحد طرفي النقيضين ؛ إما التراث و إما الحداثة ، فلا بد من خلق مجال ثالث يُحدث حالا جديدة تتوافق مع روح العصر دلالة ، وتتواكب مع روح التراث ولغته، فلا يمكن أن نوقف الفكر والإبداع على عتبات بلاغيينا القدامى فحسب، و نرى في إبداع العصر

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

تسولا من أفكارهم، فهم وقفوا على ما وقف عنده الفكر زمانهم، واخلصوا التصور فأبدعوا في الابتكار، و وضعوا المسميات المصطلحية لتلك التصورات الجديدة ، ومادام العلم ينمو و يتكاثر فلابد من تهيئة الحال لاستحداث المسميات، التي برع فيه الغرب بالتركيب اللغوي حسب طبيعة لغتهم ، وعجزنا نحن لأن لغتنا لغة مزج و خلق .

ـــ ضرورة وضع مسميات مستحدثة تستنسخ الموروث أو تقاربه ، لتحمل دلالات حرة لمفاهيم جديدة كـــ (التشبيه: التهشيب التبشهة والمجاز: الزجام الزماش والاستعارة : الاسعتارة الاكتثارة العكتارة[58] وهكذا مع مجموع ألفاظ البيان والبديع وغيرها، و من ثم تعميمها حتى نُضيّق هوة الاختلاف محليا، ونعمل على تضييقه عربيا ، وبذلك يأخذها الأجانب كمفردة موحدة تفرض نفسها مرادفا للفظ الأجنبي وتحمل معانيها وقد تتسع مع اتساع مدلول المصطلح، فاللفظة الجديدة بِكْر تحمل المعاني قبل تبلور الدلالة وتمامها، مما يسهل توحد مفهومها و الاشتراك في ماهيتها .

وفصل القول ما صدح به الباحث عبد المالك مرتاض، قائلا: « أعتقد أن الحل الأمثل يكمن في الارتكاز على التراث العربي والانطلاق منه، ثم بعد ذلك الاغتراف من الثقافة الغربية المتينة العميقة، لأنه بدون الثقافة الغربية لا يمكن إلا أن نكون سطحيين ...، وأن نمزج بين الثقافتين ونخرج بثقافة عربية خالصة»[59]، لا الاستسلام للرؤى الغربية، وإخضاع تفكيرنا إلى مواده المخادعة، فنتج أدبا لقيط الهوية مسلوب الجذور ، خاصة وأنه يستند إلى نزاعات غربية عبثية في مجموعها تقوم على فرضيات واهية ، قد تتجاوز قيمة الإبداع و النقد في تلك النصوص .

« هذا هو المنهج الذي أحاول أن أرسخه و أؤصل له عربيا؛ أن لا أكون غربيا و لا أكون تراثيا [ففوضى المنهجية الآن قائمة بين جماعتين اثنتين كلتاهما متطرفة]، وإنما استفيد من التراث الغربي و من حقول المعرفة الجديدة عند الغربيين، واستفيد في الوقت ذاته من التراث العربي »[60]، و أوطن نفسي أن أترك بصمة خاصة دالة على وجودي، من خلال المشاركة في خلق الجديد لا يكون لهؤلاء و لا أولئك، «وهذا ما يضع نقدنا الحديث المستفيد من هذه المناهج في موضوع القلق والاضطراب الدائمين، ويفرض عليه الخروج من هذا الوضع والعمل على تأسيس فكر علمي في ثقافتنا ، قادر على إنتاج مناهج نقدية علمية لها صفة الكونية »[61] ونتجه بذلك إلى علاج المريض لا أمه أو أبيه أو عشيرته و بنيه .

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

الهـــوامش :

1) مصطفى كيلاني، وجود النص " نص الوجود " ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، د ط ، 1992 ، ص 113.

2) جهاد فاضل، أسئلة النقد ـــ حوارات مع النقاد العرب، الدار العربية للكتاب، د ط، د ، ص 219.

3) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ، مكتبة الشروق الدولية ، مصر ، ط4 ، 2004 ، مادة ص ل ح ، ص520.

4) محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ج6 ، تحقيق حسين نصار ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، دط، 1969 ، مادة ص ل ح ، ص549 .

5) الجاحظ ، البيان و التبيين ج1 ، تحقيق و شرح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر، ط7 ، 1998 ، ص139.

6) مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم و الحديث ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، 1995، ص05.

7) كريم زكي حسام الدين ، التعبير الاصطلاحي، القاهرة ، مصر ، ط1، 1985، ص34.

(8) محسن عقون ، واقع الترجمة في العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، مجلة أهمية الترجمة و شروط إحيائها ، المجلس الأعلى للغة العربية ، الجزائر ، 2004 ، ص 70 .

8) يوسف وغليسي ، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث ، الدار العربية للعلوم ناشرون ،الجزائر ، ط1، 2008 ، ص42.

9) المرجع نفسه ، ص47.

11) مجلة اللسانيات و اللغة العربية ، مخبر اللسانيات و اللغة العربية ، جامعة باجي مختار ، عنابة ، ص295.

12) احمد بوحسن ، مدخل إلى علم المصطلح: المصطلح ونقد النقد العربي الحديث ، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد (60- 61) كانون الثاني – شباط 1989، بيروت، لبنان ، ص 84.

13) محمد حسن عبد العزيز ، المصطلح العلمي العربي المبادئ و الاليات ، مجلة فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ، ع66 ، 2005، ص 62.

14) ممدوح محمد خسارة ، علم المصطلح ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ط1 ، 1991 ، ص15.

15) أبو القاسم الامدي ، الموازنة بين أبي تمام و البحتري ، وزارة الثقافة و الإعلام ، العراق ، 1980، ص45.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

16) علي بن محمد الشريف الجرجاني ، كتاب التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان ، 1985، ص28.

17)جاك دريدا، الكتابة والاختلاف ، ترجمة كاظم جهاد ، دار توبقال، الدار البيضاء ، المغرب ، ط.1، 1988، ص57.

18) المرجع نفسه ، ص62.

19)عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر، ط4، 1998، هامش ص52 .

20)بيير زيما، التفكيكية دراسة نقدية، تر: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ، ط.1، 1996، ص191.

21) صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط 2002، ص106.

22) عزت جاد، نظرية المصطلح النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر ، ط2002، ص304.

23) رامان سلدان، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور، دار قباء، القاهرة، مصر ، ط1998، ص134.

24) شكري عزيز ماضي، من إشكاليات النقد العربي الجديد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان ، ط.1، 1997، ص174.

25) المسيري وفتحي التريكي ، الحداثة وما بعد الحداثة، دار الفكر المعاصر (بيروت) – دار الفكر (دمشق)، ط.1، 2003، ص115.

26) السعيد بوطاجين ، الاشتغال العامِلِي– دراسة سيميائية، منشورات الاختلاف، الجزائر ، ط 2000، ص170.

27) المسيري وفتحي التريكي ، المرجع السابق ، ص111.

28) يوسف وغليسي ، المرجع السابق ، ص 347.

29) جهاد فاضل ، المرجع السابق ، ص 216.

30) المرجع نفسه ، ص 220.

31) ميجان الرويلي وسعد البازعي ، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت / الدار البيضاء، ط.1، 1995، ص53 .

32) يوسف وغليسي ، المرجع السابق ، ص 452.

33) طه عبد الرحمن ، الفلسفة و الترجمة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط 1996 ، ص113.

34) محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1992، ص 121.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

35) في كتابه الشعرية العربية .

36) في ترجمتهما كتاب جان كوهين بنية اللغة الشعرية .

37) في ترجمتهما كتاب تودوروف الشعرية .

38) في ترجمته كتاب تودوروف نقد النقد .

39) في ترجمته لدراسة ادوارد ستاكيفينج فن الشعر البنيوي و علم اللغة ـــ في اتجاهات النقد الحديث .

40) في معجم المصطلحات اللغوية و الأدبية .

41) في ترجمته لمقدمة كتاب نورثروب فراي تشريح النقد .

42) في مقدمته لكتاب حسين الواد البنية القصصية في رسالة الغفران . .

43) في كتابه الأسلوبية و الأسلوب .

44) في ترجمته لكتاب جون لوي كاباناس النقد الأدبي و العلوم الإنسانية .

45) في ترجمته لكتاب اديث كيرزويل عصر البنيوية.

46) في ترجمته لكتاب ترنس هوكز البنيوية و علم الإشارة .

47) في كتابه البنية القصصية في رسالة الغفران.

48) في كتابه الشمس و العنقاء .

49) في ترجمته كتاب رومان ياكوبسون أفكار و أراء حول اللسانيات و الأدب .

50) في ترجمته لكتاب ميخائيل باختين شعرية ديستويفسكي و عنونه بـــ قضايا الفن الإبداعي عند ديستويفسكي.

51) في ترجمته لمقال رولان بارت نظرية النص.

52) ينظر : حسن ناظم ، مفاهيم الشعرية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت / الدار البيضاء ، ط1 ، 1994 ، ص 5.

53) رشيد بن مالك ، مقدمة في السيميائية السردية ، دار القصبة ، الجزائر ، د ط ، 2000 ، ص72.

54) حسين جمعة ، المِسْبار في النَّقْد الأَدبي (دراسة في نقد النقد للأدب القديم وللتناص) ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، سوريا ، 2003 ، ص 12.

55) مصطفى ناصف ، النقد العربي نحو نظرية ثانية ، سلسلة كتاب عالم المعرفة 255 ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، مارس 2000 ، ص 13

56) المجلس الأعلى للغة العربية ، أهمية الترجمة و شروط إحيائها ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ص310.

57) شحاذة الخوري ، دراسات في الترجمة و المصطلح و التعريب ، ج2 ، دار طلاس ، دمشق ، سوريا ، 1989 ، ص79.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362

(58)هذه نماذج للاستئناس بها وليست مصطلحات لاعتمادها، إنما يتطلب تحقيق ذلك جهد مجامع اللغة العربية ، من خلال عمل ورشات لخلق مصطلحات بضوابط لغوية رصينة، تأخذ بقاءها و استمرارها من مهابة منشئها، و قوة اشتقاقها .

(59) جهاد فاضل، المرجع السابق ، ص ص 218 . 219.

(60) المرجع نفسه، ص 220.

(61)يمنى العيد، في معرفة النص، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط3، 1985، ص17.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1362